

د. هشام أحمد فرارجة✉

■ أكاد أسمع أصداها تتردد عبر موجات الأثير عبارة أن تمكن الأحزاب الإسلامية من تحقيق فوز ملحوظ في انتخابات عدد من البلدان العربية مؤخرا مردد دعوات «اللهم أنصر الإسلام والمسلمين» التي طالما تتردد عقب صلوات الجماعة. ولا يحتاج المرء الى كثير من الجهد لكي يستدل على مؤشرات السورور، بل والأحفاء بالنصر لدى مؤيدي وأنصار بعض الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية، جراء صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية وأقترابه من الوصول، أو وصوله بالفعل الى سدة الحكم. وقد لا يكون مبالغة القول أن العديد من تلك الأحزاب والحركات تعتبر هذه المرحلة أفضل ما يمنته حتى الآن وأعظم ما توصلت إليه. ربما لا تعتبر تلك الأحزاب والحركات الإسلامية السياسية هذه المرحلة عهدها الذهبي، ولكنها وبدون أدنى شك لا تتوانى في طمأنة أعضائها وناصريها بأن العهد الذهبي، لا محالة قادم قريبا، خاصة إذا ما استمرت دعوات «اللهم أنصر الإسلام والمسلمين».

كم جميل هو النصر والشعور به وبالتأكيد، فإن أرادة الشعوب يجب دائما أن تحترم، أيا كانت خياراتها. ولكن، أيضا، كم هو كارثي الاحتفال بنصر موهم، أن صعود الإسلام السياسي من خلال الفوز في الانتخابات في بعض البلدان العربية ليس انتصارا، لا للإسلام

ولا للمسلمين، حضارة ودينا، وإنما هو وبال من العيار الثقيل، مجموعة من التفاعلات السياسية والفكرية الدولية الحديثة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة، بالطبع، هناك أيضا عدد من العوامل الإقليمية العربية والمحلية المرتبطة بكل بلد عربي شوهد فيه صعود ملحوظ للإسلام السياسي، ولكن تأثير المؤثرات الدولية في هذا الشأن يحمل أهمية مميزة، خاصة في هذا الوقت بالذات، حيث العالم الغربي يواجه مجموعة لا يستهان بها من التحديات الاقتصادية، الماليةو الحضارية والسياسية. بمعنى أدق، فإنه أيا كانت تفاصيل الأليات والعوامل المحلية والإقليمية التي ساعدت الإسلام السياسي على الصعود، فإن الغرب،

بما ساهم فيه في هذا الخصوص، يسعى لتحقيق مجموعة من الأهداف التي تخدم مصالحه هو في هذه المرحلة الحرجة من مسيرته. فمن الناحية الأولى، فإن المتابع للادبيات المؤثرة في الغرب، سواء في الأعلام، أو في صناعة السينما المؤثرة جدا، أو في المحافل الرسمية، سيستنتج بأن الغرب يستثمر حالة صعود الإسلام السياسي من أجل تكريس فرضية «صراع الحضارات» لصاموئيل هنتنجتن، والتي مفادها أن الخطر الأكبر الداهم للغرب بعد انهيار الاتحاد السوفييتي يتمثل في صعود حضارات أخرى، ليس أقلها خطورة الحضارة الإسلامية، ضمن التركيبة المتوقعة، خاصة في المنطقة العربية بمعسكر اسلامي، كما سيحلو للغرب أن يسميه، فإنه سيصبح أكثر سهولة المؤسسات التبعية الغربية أن تقوم بشحذ طاقات جماهيرها وشحنها ضد الخطر الجديد الآخذ بالصعود، أي الإسلام السياسي، بالتأكيد الآن فإن هنتنجتن من أكثر الناس سعادة وشعورا لاغرور نتيجة ثبوت رؤياه. ويا ليت المهللين للنصر المزعوم أن يترتبوا ويقنعوا عن قرع الطبول، وألا، لما سارع الغرب في هذه المرحلة بفتح قنوات اتصال عدة مع كبرى وأهم الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية، لا سيما الأخوان المسلمين في مصر ولماذا يا ترى شهدنا في الفترة الأخيرة طفرة ملحوظة في التقارب الغربي مع حركات وأحزاب الإسلام السياسي مؤخرا، قامت كبرى الصحف الأمريكية كالتيو بيورك تايمز بفسح مساحات رحبة على صفحاتها الأولى لمسؤولين كبار ومتحدثين رسميين من حركة الأخوان المسلمين في مصر لطرح وجهات نظرهم المنسجمة مع التوقعات والمتطلبات الغربية، من ديمقراطية وما شابه، أن لم يكن هذا تلميعا، فما الذي يمكن أن يكون أمرا معلوما أنه لا تستطيع وجهة نظر أن تتمتع بهذه المساحات في صفحات كبريات الصحف الأمريكية جزافا.

وبالإضافة الى تكريس الحالة الصراعية مع المنطقة العربية على أسس حضارية وأنطلاقا من فرضية «صراع الحضارات»، فإن

الإنجاز الثاني الذي سيسعى الغرب جاهدا لتحقيقه جراء صعود الإسلام السياسي الى سدة الحكم يتمثل في تعزيز نهج التجزئة في المنطقة العربية على أسس طائفية ومذهبية ودينية، أكثر من أي وقت مضى، وبالطبع، فإنه من البديهي القول بأنه يتبع المزيد من التجزئة المحلية والأقليمية العربية تكريس المزيد من السيطرة الغربية، أن لم يكن بشكل مباشر، فبإشكال حضارية وثقافية متشابهة ومعقدة التركيب. ولذلك، سوف تصعد مسألة حماية الأقليات الى واجهة الجدل بشكل غير مسبوق. ومن الراجح أن يترتب على ذلك أيضا تبلور منظومة مشاريع لحل أية أشكالات سياسية مستقبلية في المنطقة من خلال تمكين كل اتجاه، سواء كان دينيا، عقائديا، أو سياسيا، من تكوين كيانه الخاص به. وما السودان وفلسطين في هذا الخصوص إلا حالتان ساطعتان، تشكلتا بعد صعود الإسلام السياسي الى سدة الحكم في هذين البلدين.

وثالث هذه الإنجازات هو من نصيب إسرائيل وداعميها في الغرب تحديدا. فتكاد لا توجد فرصة أكثر مواءمة للأسرائيليين لاحتلالهم وممارساتهم القمعية ضد الشعب الفلسطيني من مرحلة صعود الإسلام السياسي، وفي حقيقة الأمر، فإن إحدى سخریات القدر تكمن في أن من أكثر الذين دعوا في الغرب لفتح حوارات واتصالات مع بعض الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية هم من رواد الدعم اللامحدود لإسرائيل. وأن برهن ذلك على شيء، فإنما يدلل على معرفة هؤلاء بأن غض الطرف عن صعود الإسلام السياسي في هذه المرحلة يمكن أن يحقق مكاسب أكثر من الخسائر التي يمكن تكبدها، خاصة فيما يتعلق بمساعدة اسرائيل من أجل فك طوق العزلة المتصاعد عنها.

رابعا، أن من تكاد نسمع قهقهاتهم، خاصة في هذه الأيام في الغرب هم أنصار ودعاة اليمين المتطرف والمحافظين الجدد. فمن

خلال الأطلاع على بعض كتابات هؤلاء وتصريحاتهم، يمكن للمرء أن يستنتج بسهولة بأنهم يعتقدون أن الطريق قد أصبح أمامهم أسهل من ذي قبل للامساك بزمام الأمور، بل ولأحتكار صناعة القرار بما يتمشى مع مخططاتهم العقائدية، لا سيما فيما يتعلق باستمرارية الكون أو عدمه. هؤلاء يطرحون الآن أن مهمتهم لإقناع الآخرين المترددين في الغرب بوجهات نظرهم قد أصبحت أيسر من أي وقت مضى بسبب صعود الإسلام السياسي.

وأخيرا هنا، فإن الأستثمار الآخر الذي يبذع الغرب في قطفه من حقول صعود الإسلام السياسي يتمثل في تهيئة عدد من الحركات والأحزاب الاسلامية السياسية نحو المزيد من «الغربة»، Westernization، حيث تلك الحركات والأحزاب في حالة جهوزية لا بأس بها، بهذا الخصوص. من أهم مؤشرات ذلك الأستعداد للنحو أقرب للغرب عدم توقف الكثير من تلك الحركات والأحزاب عن طمأنة الغرب، بشكل منقطع النظير، بأن منظومتها القيمية، فيما يتعلق بالحريات الشخصية وغيرها، ليست بعيدة عن مثل الغرب وقيمه وأعرافه وتقاليده. أن نظرة متفحصة لتصريحات كبار المسؤولين في تلك الحركات والأحزاب لتبين بما لا يدع مجالا للشك بأن هؤلاء المسؤولين متعطشون ولاهثون لكي يقبل بهم الغرب ويقر بوجودهم وشرعية حكمهم، ولكن، وكما هو أيضا معلوم، فإنه لا يوجد في السياسة غداء مجاني. كل تفاعل، أيا كان نوعه أو القائم به، له ثمنه. وكما هو الحال لغيرها، فإن الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية لا تعيش في فراغ، وإنما في عالم متشابك، هو أشبه ما يكون، بالفعل، بقرية صغيرة. وعليه، فإن تلك الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية، تماما كغيرها، سجدت نفسها إما امام دفع إنشأن باهظة لإسترضاء الغرب، أو في مواجهة حالة من العزلة والتهديد ولربما التمهيد لمزيد من السيطرة على المنطقة العربية ومقدراتها. والأرجح، في اعتقادي، هو أن الغرب بأمس الحاجة الآن لكي يستخدم الإسلام السياسي

السنة الثالثة والعشرون – العدد 6999 الارباء 14 كانون الاول (ديسمبر) 2011 – 18 محرم 1433هـ



كشماعة لحاوله أستنهاض قواه وتجميع صفوفه، ولكن أيا كان الحال، فإن الغرب سيعمل كل ما في جهده لقطف الثمار على طريقته من حالة صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية، أما عن طريق محاولاته ب«تدجين» الإسلام أو بمواجهته.

وضمن ذلك كله، فإن من لجأوا للإسلام لتحقيق مآرب سياسية وحزبية سرعان ما سيجدون أنفسهم قد وضعوا أنفسهم والمنطقة العربية بين المطرقة والسندان. وفي الحالة التركية دروس عدة لا يمكن إغفالها، حيث محاولة المواءمة بين «الغربة» والأسلام السياسي لم تكن، بل ولن تكون، بدون إنشأن باهظة، سياسيا، واجتماعيا واقتصاديا.

وعليه، فإن من يطبل ويזمر الآن هو تماما كمن ينتشئ جراء حركة ذنية خادعة من الخصم في لعبة الشطرنج، وأحداث التاريخ حبلى بحركات تبدو في ظاهرها منمقة، بينما هي في باطنها طعم بيحث عن سمكة تلتقطه من أجل أن يجهز الصياد عليها، أن مراجعة فحوى ومعزى أجتماع أبريل جلاسبي مع صدام حسين في شهر تموز، 1990 بخصوص أزمة الخليج، على سبيل المثال، لتشكل مثلا مدلا على كيفية أستخدام الدبلوماسية من أجل تحقيق أهداف غير تلك التي تبدو في الظاهر.

وأنطلاقا من ذلك، فإن الحركات والأحزاب الإسلامية السياسية، سواء كانت تعرف أو لا تعرف، وتقصد أو لا تقصد، تساهم في تمكين الغرب من أحكام فكي قبضته على المنطقة العربية أكثر من ذي قبل، أيا مباشرة أو غير ذلك، تبعاً لتبلور التفاصيل في الأحداث والتطورات.

هل الأمر آن، ميؤوس منه، خاصة إذا ما تتبعنا هذا المنطق سواء كانت تعرف أو لا تعرف، وتقصد أو لا تقصد، تساهم في تمكين الغرب من أحكام فكي قبضته على المنطقة العربية أكثر من ذي قبل، أيا مباشرة أو غير ذلك، تبعاً لتبلور التفاصيل في الأحداث والتطورات.

هل الأمر آن، ميؤوس منه، خاصة إذا ما تتبعنا هذا المنطق التحليلي الى نهايته؟ هل بإمكان الحركات والأحزاب السياسية الأخرى، غير الإسلامية السياسية، أن تفعل شيئا لحماية المنطقة العربية، في ظل كل ما ذكر؟ ما هي الأستراتيجية التي يجب صياغتها ولورتها في مثل هذه المرحلة، خاصة جراء زيادة التعقيدات المحلية والإقليمية والدولية؟

هذا بالتأكيد ما تأمل أن نتناوله بالتحليل في موضوع منفصل.

^[1] أستاذ للعلوم السياسية في جامعة سينت ماري في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية